هل الجبل ينحدر ؟

كانت السيارات الكبيرة تتقدم ، تجتاحنا ، وترسل انينها في ارجاء الشوارع . الجبل يخترق من جميع النواحي . يقطعون الاشجار ويقيمون البنايات . آلات جبل الاسمنت اصبحت شعار المرحلة . في كل شارع آلة يتراكض من حولها العمال السوريون والاكراد . يرمون في أحشائها الرمل والحصى والماء . فتدور على نفسها وترمي بعد ذلك الاسمنت الذي تبنى به البيوت العالية الحصينة . تنبت البنايات وكأنها ولدت هنا . وتتساقط الحجارة الرملية الدافئة والسميكة لتأتي مكانها حجارة الاسمنت المجوفة والباردة . والعجلة تدور . مئات العمال يأتون من اكواخ التنك المزروعة على المدخل الشرقي لبيروت والتي تسمى الكرنتينا ، ليحملوا الحصى والرمل ، ويمدوا الاسمنت على الساحات .

تأتي الجرافة ، فتسوي التلة بالارض ، او بالعلو الذي افترض للارض . وتتساقط النخلة امام بيتنا بين فكي الجرافة . جذورها المنتشرة فوق الارض ، في بركة من الحجارة والرمل ، تقتلع وتتساقط . تتمزق كالشرايين الصغيرة أمام القذائف . والابنية الجديدة تعلو . جبال من الابنية والطرقات والساحات .

هل الجبل ينحدر ؟

اسير على مفترقاته ، ابحث عن طفولتي . اجد امامي على التلة التي اسميها جبلا ، منحدرا صغيرا يفصل الجبل عن نهر بيروت . السيارات الصغيرة كبرت ، وانا كبرت . والبنايات العالية اصبحت تغطي البحر . كنت اعتقد اننا سرقنا البحر . لكن رائحة الاسمنت المسلح سرقت رائحة البحر .

لم ينحدر الجبل .

الاصوات على مداخله ، والابنية تتوالد ، والساحات تبنى . هذا الصوت المرتفع لم يعد صوتي . الاصوات تنحني على المداخل ، والحركة اصبحت عنوان لحظة جديدة . هذا هو الجبل الصغير الذي لم ينحدر .

تعلو الحجارة وتعلو الرؤوس . تعلو الموسيقى الصاخبة وتعلو الرؤوس . احمل على جسدي وشما قديما يعود الى الايام وانتظر على حافته .

١٩٥٦ : العدوان الثلاثي على مصر . كنا في مدرسة الحي الفقيرة والصغيرة . كنا صغارا . نستمع الى راديو صوت العرب . نذهب الى البيت ونفرح عندما تنتصر مصر .

١٩٥٨ : المتاريس في الحي . الوجوه كالحة . المسلمون يريدون قتلنا . لم تصدق امي . كانت دائما تقول ، هذا غير معقول . انهم يشبهوننا كثيرا .

الابنية العالية تصبح متاريس . تغيرت الاشياء . الاصوات ترتفع . تغيرت الاشياء . السيارات تكبر ونحن نكبر .

★ ★ ★